يونس عليه السلام

في نينوى[1]، وتحت ظِلال الأصنام، وبين حَنَادِس[2] الجهل والشرك، أشعل يونسُ قبَس الإيمان، وحمل عَلم التوحيد، وأهاب بقومه الجاهلين: أن ارْبَئُوا بعقولكم عن عبادة الأصنام، وكرّموا جباهكم أن تسجد لهذه الأوثان، وتبصروا في أنفسكم، وَأَنْعِمُوا النظر فيما حولكم وما يحيط بكم، تجدوا أن وراء هذا الكون البديع إلٰهاً كبيراً، فَرْداً صَمَداً، جديراً بأن يختصَّ بالعبادة، وَيُقصدَ وحده بالتقديس، أرسلني هدايةً لكم، ورحمة بكم، لأدلكم عليه، وأرشِدكم إليه؛ إذ كان الجهل قد رانَ على قلوبكم فلم تبْصر، وَغَشى على بصائركم فلم تتدبَّر.

فَدُهش القوم أن سمعوا قولاً لم يألفوه، وحديثاً عن إلٰه لم يعرفوه، وَكَبُرَ عليهم أن يروا واحداً كان منهم فخرج عليهم، ورجلاً من عامتهم ينصب نفسه رسولاً إليهم، وهادياً لهم.

قالوا: ما هذا القول الذي تهذِر[3] به، والبهتان الذي تدعو إليه؟ هذه آلهة عبدها آباؤنا من قبل، ونعبُدُها نحن اليوم، وما الذي حدث في الكون أو ظهر من الأحداث، حتى نترك هذا الدين الذي نعتقده، ونستريح إلى دين أبدعْتَه واخترعْتَه، وجئت تدعو إليه، وتجاهد فيه؟

قال: يا قوم، ارفعوا عن عيونكم غشاوة التقليد، ومزّقوا عن عقولكم نسيج الأوهام، وفكّرُوا شيئاً، وتدبروا قليلاً، أهذه الأوثان التي تتوجهون إليها في صَباحكم ومسائكم، وتعتمدون عليها في قضاء حاجاتكم أو دفع الشرّ عنكم، تجلِب لكم نفعاً، أو تستطيع أن تدفع عنكم شرًّا؟ أهي قادرة على أن تخلقَ شيئاً، أو تحيي ميتاً، أو تشفي

---

(١) نينوى: بسواد الكوفة ناحية تسمى نينوى.

(٢) حنادس جمع حندس: وهو الظلمة.

(٣) هذر الرجل في كلامه: تكلم بما لا ينبغي.

مريضاً، أو تردّ ضالاً؟ أهي تستطيع دفع الشر عنها لو أردته بها، أو تقيم نفسها لو حطمتُها وهَشَّمْتُها؟

ثم مالكمُ تُعرضون عن هذا الدين الذي أدعوكم إليه؟ وهو يأمركم بما فيه صلاح أمورِكُم، واستقامةُ أحوالكمُ، وتقويمُ جماعتكم، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويُبغِّضَكم في الظلم، ويحبِّبُ إليكمُ العدل والسلام، وينشر فيما بينكم الأمان والاطمئنان، ثم هو يحثّكم على العطف على المسكين، والحَدَب على الفقير، وإطعام الجائع، وفَكِّ العاني مما فيه صلاح الحال، واستقامة الأعمال.

فما ظفر منهم إلا بجواب الجاهلين، وما جادلوه إلا بسفسطة[1] المتعنّتين. قالوا: ما أنت إلا بشر مثلنا، وواحد منا، ولا سبيل إلى نفوسنا أن تَسِيرَ في هَدْيك، أو تذعن لدعوتك، فكفكف[2] من غَرْبك، وَأَقْصِرْ من قولك، ودون ما ترجو غاياتٌ بعيدة، وحُجز قائمة.

قال: لقد دعوتكم بالهوادة واللين، وجادلتكم بالتي هي أحسن؛ فإذا كانت دعوتي تصل إلى قرارة نفوسكم، كان الخير الذي أرجوه، والإيمان الذي أبتغيه، وإلا فإني أُنْذِرُكم عذاباً واقعاً، وبلاءً نازلاً، وهلاكاً قريباً، ترون طلائعه، وتتقدم إليكم دلائلُه.

قالوا: يا يونس، ما نحن بمستجيبين لدعوتك، ولا خائفين من وعيدك؛ فأتنا بما تعِدُنا إن كنت من الصادقين.

ولم يُطِق يونس صبراً، بل ضاق بهم ذرعاً، وقطع الرجاء فيهم قبل مُطاولتهم ومدّ الحبل لهم؛ فرحل عنهم مغاضباً لهم؛ يائساً من إيمانهم، ناقضاً الكفّ منهم؛ إذ دعاهم فلم يؤمنوا، وبصَّرهم فلم يتدبروا، وجادلهم فلم يستمعوا، وحسب أن الدعوةَ مقصورة على ما فعل، وظن أنه يكفي لإبلاغها ما كان.

ولعله لو كان قد أطال مدّته، واستمر في نشر دعوته، لوجد فيهم مَنْ يؤمن ويستجيب، ولوجد فيهم من يستغفر ويُنيب، ولكنه رَحل ليلقى من الله قضاءً ويتلقى جزاء...

---

(١) السفسطة: قياس مركب من الوهميات والغرض منه إفحام الخصم وإسكاته. وأصلها من اليونانية.
(٢) كفكف فلاناً عن الشيء: صرفه.

ولم يكد يَبْعُد يونس قليلاً عن نينوى، حتى وافَتْ أهْلَها نُذُر العذاب، واقتربت منهم طلائع الهلاك، اغْبَرَّ الجوُّ حَولُهم، ثم تغيرت ألوانهم، وتشيَّأت[١] وجوهُهم؛ فداخلهم القَلق، وساورهم الخوف، وعلموا أن دعوة يونس حق، وإنذارَه صدق، وأن العذاب لا بُدَّ بهم واقع، وأنه سيصيبهم ما كانوا قد سمعوه عن عاد وثمود وقوم نوح.

ولكنه وقع في نفوسهم أن يلجئوا إلى إلٰه يونس فيؤمنوا، ويتوبوا إليه ويستغفروا؛ فخرجوا إلى شِعاف[٢] الجبال، وبطون الصحراء، شاكين متضرعين باكين متوسلين، وفرّقوا بين الأمهات وأطفالها، والإبل وفُصلانها، والبقر وأولادها، والغنم وحملانها؛ ثمْ أعْوَلَ الجميع؛ فصاحت الأمهات، ورغَت[٣] الإبلُ، وخارت[٤] البقر، وثغتِ[٥] الغنم؛ وكانت ساعةً بسط الله عليهم بعدها جَناح رحمته، ورفع عنهم سحائب نِقمَته، وتقبَّل منهم التوبة والإنابة؛ إذا كانوا مخلصين في توبتهم، صادقين في إيمانهم، ورد عنهم العقاب، وحبَس العذاب، ورجعوا إلى دورهم آمنين مؤمنين، وودّوا لو يعود إليهم يونس؛ ليعيش بينهم رسولاً ونبياً، ومعلماً وإماماً.

ولكنه ـ وقد فارقهم، وترك ديارهم ـ أخذ يضرب في الأرض ويُغذّ[٦] في السير، حتى انتهى إلى البحر؛ وهناك وجد جماعة يعَبُرون، فسألهم أن يصحبوه معهم، ويحملوه في سفينتهم؛ فقبلوه على ارتياح، وأنزلوه بينهم منزلاً كريماً، ومقاماً عزيزاً؛ إذ كان يظهر في وجهه الكرمُ والسماح، وتتحدث غُرَّته عن تقوى وصلاح؛ ولكنهم ما ابتعدوا عن الشاطىء، وجاوزوا البر، حتى هاجت الأمواج، واصطلحت على السفينة الأعاصير؛ وتوقّع الراكبون سوء المصير؛ فزاغت الأبصار، وانخلعت القلوب، ورجفت القوائم؛ ولم يجدوا طريقاً لنجاتهم إلا أن يتخففوا، فاشْتورُوا ما يصنعون، ثم اتفقوا على الاقتراع،

---

(١) تشيأت وجوههم: تشوهت.
(٢) شعاف جمع شعفة: الشعفة من كل شيء: أعلاه.
(٣) رغت الإبل: صوتت وضجت.
(٤) خار الثور: صاح.
(٥) ثغت الشاة أو الغنم ونحوها: صاحت.
(٦) غذ السير: أسرع فيه.

فساهم[١] الجميع، ووقع السَّهم على يونس، ولكنهم ضَنوا به على البحر، تكريماً لشأنه، وعِرْفاناً بمكانه، فعادوا للمساهمة، وعاد السهم على يونس، فضنوا به أيضاً، وعادوا للمساهمة فعاد السهم عليه!

فعلم يونس أن من وراء ذلك سِرًّا، وأن لله في ذلك تدبيراً، وأدرك خطيئته، وما كان من تركه لقومه قبل أن يُؤذَن له في الهجرة، أو يستخير الله في الرحيل، فألقى بنفسه في اليَمِّ، وأسلم نفسه للأمواج، يتقلب بين طَيَّاتها، ويتخبَّط في ظلماتها.

وأوحى الله إلى الحوت أن يبتلعه، وأن يَطويَهُ في بطنه، ولكن على ألا يأكل لحَمه، ولا يهشم عظمه، فما هو إلا نبي كريم، تأوّل[٢] فلم يُصبْ، وعَجِل ثم ندم، وأنه وديعة عنده، يؤديها حينما يأذن له الله.

وقبع يونس في بطن الحوت، والحوت يشق الأمواج، ويهوي إلى الأعماق، في ظلمات متضاعفة، وحنادس متعاقبة، فضاق صدْره، واعتلج هَمّه، وفزع إلى الله غياث الملهوف، وملجأ المكروب، وواسع الرحمة، وقابل التوبة، وغافر الذنب: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[٣].

فاستجابَ الله الدعاء، وأوحى إلى الحوت في الماء: ألْقِ بضيفك في العَراء؛ فقد أوفى على الغاية، ونال ما قُدِّرَ له من جزاء، فألقاه على الشاطىء سقيماً هزيلاً، مُدنَفاً عليلاً، وتلقَّته رحمة الله فأنبتت عليه شجرة من يَقْطِين[٤]، طعِم بثمرها، واستظلَّ بورقها، ودَبَّتْ إليه العافية، وظهرت فيه تباشير الحياة.

ولما استوى على سوقِه، ورجع إلى سابق عهده، أوحى الله إليه: أن ارجع إلى بلدك، وموطن آصِرَتك وعشيرتك، فإنهم آمنوا فنفعهم الإيمان، ونبذوا الأصنام والأوثان، وإنهم الآن يتحسسون مكانك، ويترقبون مجيئك.

وعاد يونس إلى قريته، وما راعه إلا أنه خلَّفهم وليس فيهم إلا من هو عاكف على الأصناف، وعاد إليهم وما فيهم إلا ألسنة تلهج بذكر الرحمٰن.

---

(١) ساهم: قارع.
(٢) أوَّل الكلام: فسره وردّه إلى الغاية المرجوه منه.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٤) يقطين: وهي القرع.